ذكر الطريقة الشرعية في الموقف من المنافقين والتعامل معهم والواجب نحوهم

يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩].

الآية تدل على أن النفاق سيظل موجودًا وسيظل محسوسًا ملموسًا من أشخاص ترى فيهم آيات النفاق.

والنفاق المقصود في الآية ليس قاصرًا على النفاق ذي المرامي السياسة والأهداف التسلطية، بل هو النفاق بكافة أشكاله وصوره، عندما يكون موجهًا إلى الإضرار بالدين وأصحاب الدين، سواء كان صادرًا من أهل السياسة، أومن أهل الثقافة، أو أهل الفن والقلم أو حتى بعض المنسوبين للعلم والفتوى.

وقد وصف الإمام الفقيه المفسر أبو بكر بن العربي رحمه الله واجب الجهاد باللسان ضد المنافقين بأنه فريضة دائمة[1].

(١) أحكام القرآن ٢/ ٩٦٦.

obeikandl.com

ويعلـق الدكتور عبدالعزيز كامل عـلى كلام ابن العربي، فيقول: (وقـد تأملت في هذا الوصف فألفيته وصفًـا دقيقًا يحكي فروقًا كثيرة بين فريضتي جهاد الكفار وجهاد المنافقين من أوجه متعددة:

- منهـا أن جهـاد الكفار يجيء ويذهب باختـلاف الأزمنة والأمكنة، وبحسـب وجود دواعيه ومسبباته من مداهمة الكفار الصادين عن سـبيل الله، أما المنافقون فجهادهم قائم ودائم في السـلم والحرب؛ لأن أذاهم للدين موصول في السلم والحرب.

- ومنهـا أن عـداء المنافقـين في الغالب مسـتتر خفي، وعـداء الكفار معلن جليّ، ولا شك أن المستعلن بالعداء يعطي من يعاديهم فرصة للتحفـز والاسـتعداد وأخـذ الحذر، بخـلاف من يتآمـر في الخفاء، ويموه العداء.

- ومنها أن خطر المنافقين ينطلق من الداخل بين صفوف المسـلمين، بينـما يجـيء خطر الكفـار الظاهريـن في أكثر الأحيان مـن الخارج، وخطر الخارج لا يستفحل دائمًا إلا بمساندة من الداخل.

- ومنها أن عداوة المنافقين شـاملة لا تقتصر على جانب دون جانب، فهي تبدأ من الكلمة همزًا ولمزًا وسخرية وغمزًا، وتنتهي إلى الخيانة العظمـى بالقتال في صـف الكفار وتحت راياتهم والتآمر معهم على المسلمين وكشف أسرارهم.

- ومنها أن جهاد الكفار قد يكون عينيًّا أو يكون كفائيًّا، وقد يسقط بالأعذار أو الإعذار، أما جهاد المنافقين فهو غير قابل للسقوط إذا وجدت مسوغاته، فهو واجب على كل مكلف بحسبه، ففي الحديث عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسننه ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**[1]»[2].

وقد مر بنا في الفصول السابقة ذكر صفاتهم التي تقوم على الخداع والتلبيس وذكر أخطارهم وفتنتهم، ووقفنا على أقوال المفسرين عند قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

ويمكن تفصيل القول في الموقف من المنافقين وما هو الواجب نحوهم في ضوء آية التوبة والتحريم المواقف الآتية:

أولًا: بغضهم وعداوتهم والبراءة منهم ومن صفاتهم وأفعالهم وعدم موالاتهم وهجرهم وهجر مجالسهم ومواقعهم الإعلامية، وهذا من الجهاد القلبي لهم.

(١) مسلم (٨٠).
(٢) مجلة البيان العدد (١٧١) ص٨.

ثانيًا: فضحهم وتعريتهم وكشف خباياهم ونواياهم ومراقبتهم ورصد مواقعهم وخططهم وأفرادهم، وتحذير المؤمنين منهم وذكر صفاتهم، وهذا ما أفاضت فيه نصوص الوحي كتابًا وسنة.

فهم تارة يذكرون باسم المنافقين ووصف النفاق، كما جاء ذلك في نحو سبع وثلاثين آية، وتارة بوصف ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [محمد: ٢٠]، وهم الرديف والمدد والمخزون الطويل الأمد لمعلومي النفاق حيث ذكر هذا الوصف في اثنتي عشرة سورة من القرآن.

والمتأمل في الحديث عن مرض القلوب في القرآن يستنتج أن هؤلاء لديهم الاستعداد لأن يكونوا معلومي النفاق بما لديهم من أمراض الشهوات والشبهات، ولذلك قرن الله ﷻ مرض القلوب بالمنافقين في أكثر من موضع.

وإذا أطلق مرض القلوب في القرآن فهو يعني النفاق الأكبر عياذًا بالله تعالى، ومما يحذره المنافقون ولا سيما منافقو زماننا أن يوصفوا بالنفاق أو يسموا بالمنافقين، إذ هذا أشد عليهم من وصفهم بغير ذلك كالعلمانيين أو الليبراليين.

ثالثًا: جهادهم باللسان وما يقوم مقامه من كل وسيلة ترد ما يستطاع من كيدهم وشبهاتهم، وتبين للناس خداعهم وكذبهم وتلبيساتهم، وتقيم الحجة عليهم، وتقمع زيغهم ومخططاتهم.

رابعًا: تحذير الناس من المندسين منهم في صفوف المسلمين، ولا سيما في صفوف الدعاة والمجاهدين، وأن يتفقدوا الصف من داخله، ويختبروا بطانتهم، وينقوها من الطفيليات العالقة بها، وأن لا يكونوا سماعين لهم.

وأن لا يقبل منهم جهاد ولا نفقة، وأن لا يمكنوا من مناصب قيادية ولو بعد توبتهم.

خامسًا: عدم الدفاع والمجادلة عن المنافقين، كما أوحى الله ﷻ إلى نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

سادسًا: عدم تسويدهم أو تقريبهم أو الثناء عليهم وتزكيتهم أو مشاورتهم، فعن بريدة بن الحصيب مرفوعًا «لا تقولوا للمنافق: سيد. فإنه إن يكن سيدًا فقد أسخطتم ربكم ﷻ»(١).

سابعًا: ينبغي التفريق بين المنافقين في نفاقهم، فمنهم المنافق الخالص، ومنهم في قلبه مرض ونفاق، وقليل من الإيمان، ومنهم الجاهل المخدوع، فليسوا سواء في الحكم والمعاملة.

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٧٩) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٩٢٣).

obeikandl.com

ثامنًا: ترك الصلاة خلفهم، وعدم الصلاة عليهم والاستغفار لهم، إن هم ماتوا على النفاق دون توبة، قال الله ﷻ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾[التوبة: ٨٤].

تاسعًا: العدل والإنصاف معهم، بحيث لا يرمى أحد بالنفاق إلا بدلائل وقرائن بينة، لا بالظنون واللوازم الباطلة، وأن يأخذ الناس بظواهرهم، والحكم لهم بالإسلام في الدنيا حتى تظهر لنا البينة على ردتهم وزندقتهم.

عاشرًا: وعظهم وزجرهم ومناصحتهم، لعلهم يتوبون ويتذكرون، قال الله ﷻ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾[النساء: ٦٣].

ولا بد في توبة المنافقين مع شروط التوبة المعروفة من الإخلاص والإصلاح لما أفسدوه والاعتصام بالله ﷻ. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[النساء: ١٤٦].

الحادي عشر: على الدعاة إلى الله ﷻ ألا يختلفوا في شأن رايات النفاق، وأن يحذروا من الوقوع في حبائل المنافقين، التي ينصبونها باختيار أسماء وصفات لهم، يضللون الناس بها ويظل الإسلاميون

يختلفون في معناها وحكمها. بل يجب الاتفاق وإجماع الأمر على تسميتهم بالمنافقين، مهما انتحلوا من أسماء أخرى، واعتبار النفاق بدرجاته وأسمائه صفًا واحدًا جامعًا لكل أصحاب الرايات غير الإسلامية وهذا الاتفاق يشمل:

أ- مواجهة المنافقين بوصفهم يهدمون كليات هذا الدين ومحكماته، ويتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، لما في قلوبهم من الزيغ.

وهذا يوجب الحذر من استدراج المنافقين والانشغال بالردود على شبههم وجزئياتهم فحسب، بل يجب التركيز على نقض أصول منطلقاتهم الفاسدة، التي جاءت جزئيات فسادهم إقرارًا طبيعيًّا لفساد أصولهم، التي تقوم على عدم التسليم لشرع الله ﷻ وعدم قبوله مهيمنًا على حياة الناس.

ب- الاتفاق على وصفهم بالنفاق والمنافقين، وأن الاختلاف في الحكم عليهم لا يخرجهم عن وصف النفاق.

جـ- الاتفاق على أن ظهور علامات النفاق الأكبر من بعضهم محل انكار المحتسبين وجهاد المجاهدين حسب الأحوال.

د- الاتفاق على عدم إسباغ الشرعية على أوضاعهم المنحرفة عن الدين.

هـ- الاتفاق على عدم حسن الظن بهم وعدم تزكيتهم للناس، لأن في ذلك تضليلًا وتلبيسًا.

و- الاتفاق على وصف بعض رايات النفاق الأكبر بالردة الصريحة إذا توافرت الشروط وانتفت الموانع.

ز- تقوية الدعوة ومناشطها وتوسيع نطاق الصحوة الإسلامية، لأن ذلك من أهم المعاول التي يخشاها المنافقون والمنافقات، التي تهدم بنيانهم، وتحصن الأمة من شرهم وفتنتهم.

الثاني عشر: جهادهم باليد والإغلاظ عليهم ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩]، والسعي لشل فاعليتهم، والحرص على وحدة الصف الإسلامي وتماسكه في مواجهتهم.

ولفهم المقصود بالجهاد والغلظة عليهم ليتأمل ما قيل في تفسير هذه الآية، يقول ابن كثير رحمه الله: (روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف المشركين: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، وسيف لكفار أهل الكتاب: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وسيف للمنافقين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وسيف للبغاة ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، ثم قال ابن كثير: (وهذا يقتضي أن يجاهدوا بالسيوف إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير)[١].

وجهاد المنافقين بالسيف محكوم بالضوابط الشرعية والموازنة بين المصالح والمفاسد حسب الأحوال والأزمان والقوة والاستضعاف، ومن ذلك تركه ﷺ قتل من ظهر نفاقه كعبد الله بن أبي ابن سلول للمفسدة الكبيرة التي تترتب على قتلهم، ومن ذلك قوله ﷺ: «**أكره أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»[٢]، وفي رواية أخرى عندما هم بعض المنافقين بقتله ﷺ في رجوعه من غزوة تبوك، فقال الصحابة للرسول ﷺ (أو لا نبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم) قال ﷺ: «**لا؛ أكره أن يتحدث العرب أن محمدًا قاتل بقومه، حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم**»[٣].

إذا عرف أن معاملة المنافقين تكون بالغلظة عليهم، فلنتأمل حال بعض المسلمين اليوم في تعاملهم مع المنافقين المعروفين بحربهم للدين وبغضهم للخير وأهله وحبهم إشاعة الفاحشة، حيث اللين مع هؤلاء

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٠٨.
(٢) البخاري (٤٩٠٧)، مسلم (٢٥٨٤).
(٣) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٠٩، ورواه البيهقي في الدلائل ٢٠٠٩.

المنافقين والرفق بهم، وهذا وإن جاز في بعض الأحيان فهو غير سائغ في كل حين، ولئن جاز مع بعضهم فلا يجوز مع عامة المنافقين.

ولقد ضم هؤلاء مع خطيئتهم باللين مع المنافقين خطيئة أخرى أشد منها، ألا وهي قسوتهم وغلظتهم على بعض إخوانهم من المؤمنين الغيورين والدعاة المصلحين، فيا ليت أن إخواننا هؤلاء عكسوا الأمر، امتثالًا لقول الله ﷻ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المائدة: ٥٤]. فالمتعين على المؤمنين أن يكونوا يدًا واحدة في جهاد الكفار والمنافقين.

فكما وصف الله ﷻ المنافقين باجتماع كلمتهم في النوازل ورميهم للمصلحين عن قوس واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾[التوبة: ٦٧]، فكذلك وصف المؤمنين بقوله ﷻ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[التوبة: ٧١].

تفصيل القول في جهاد المنافقين وضوابطه:

إن القول في جهاد المنافقين وفقه التعامل معهم تحكمه وتضبطه ضوابط الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإعمال فقه الموازنات بين المصالح والمفاسد وفقه المآلات، ولذلك يتفاوت جهاد المنافقين بين جهادهم بالقلب أو اللسان أو اليد، حسب الأحوال وغلبة المصالح أو المفاسد، وحسب مراحل القوة والاستضعاف.

كـما يحكمه نوع النفاق وكثرته أو قلته، حيث إن المتهمين بالنفاق ليسوا على درجة واحدة، (بل فيهم المنافق المحض، وفيهم من فيه إيمان ضعيف ونفاق، وفيهم من إيمانه غالب وفيه شعبة من النفاق)[1].

وهذا ما سيتبين من خلال التعرف على الهدي النبوي في التعامل مع المنافقين وخير الهدي هدي النبي ﷺ.

يقول شـيخ الإسلام رحمه الله: (فإن قيل: فالله قد أمر بجهاد الكفار والمنافقـين في آيتـين من القـرآن، فـإذا كان المنافق تجـري عليه أحكام الإسلام في الظاهر فكيف يمكن مجاهدته؟

قيـل: ما يسـتقر في القلب من إيمان ونفـاق لا بد أن يظهر موجبه في القـول والعمـل، كما قـال بعض السـلف: ما أسر أحـد سريرة إلا أبداهـا الله على صفحات وجهه وفلتات لسـانه. وقد قال الله تعالى في حـق المنافقـين: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]. فـإذا أظهـر المنافق من تـرك الواجبات وفعل المحرمـات ما يسـتحق عليه العقوبة عوقب عـلى الظاهر، ولا يعاقب على ما يعلم من باطنه بلا حجة ظاهرة.

ولهـذا كان النبي ﷺ يعلم من المنافقين مـن عرفه الله بهم، وكانوا يحلفـون لـه وهم كاذبـون، وكان يقبل علانيتهم ويـكل سرائرهم إلى

(١) انظـر مجمـوع فتـاوى شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة ٧/ ٥٢٣، رواه البيهقـي في الدلائل ٥/ ٣٤٠ (٢٠٠٩).

الله. وأساس النفاق الذي يبنى عليه: الكذب، والمنافق لا بد وأن تختلف سريرته وعلانيته وظاهره وباطنه، ولهذا يصفهم الله في كتابه بالكذب كما يصف المؤمنين بالصدق...

وبالجملة فأصل هذه المسائل أن تعلم أن الكفر نوعان: كفر ظاهر وكفر نفاق، فإذا تكلم في أحكام الآخرة كان حكم المنافق حكم الكفار، وأما في أحكام الدنيا فقد تجري على المنافق أحكام المسلمين)[1].

وعن وجوب قتل المنافقين إذا ظهر نفاقه ومنع استتابته، يقول ابن تيمية رحمه الله: (ويدل على جواز قتل الزنديق والمنافق من غير استتابة قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٤٩ - ٥٢].

قال أهل التفسير: أو بأيدينا بالقتل: إن أظهرتم ما في قلوبكم قتلناكم، وهو كما قالوا، لأن العذاب على ما يبطنونه من النفاق. بأيدينا

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٦٢٠، ٦٢١.

لا يكـون إلا القتل لكفرهم، ولـو كان المنافق يجب قبول ما يظهر من التوبـة بعد ما ظهر نفاقـه وزندقته لم يمكن أن يتربص بهم أن يصيبهم الله تعـالى بعذاب من عنـده أو بأيدينا، لأنا كلما أردنـا أن نعذبهم على ما أظهروه أظهـروا التوبة، وقال قتادة وغيره: قوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ﴾[التوبـة: ١٠١]، إلى قوله ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ [التوبة: ١٠١]، قالوا: في الدنيا القتل وفي البرزخ عذاب القبر.

ومما يـدل عـلى ذلـك أيضًـا قولـه تعـالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبـة: ٦٢]، وقولـه ﷻ: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبـة: ٩٥ - ٩٦]، وكذلـك قولـه تعـالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ [التوبـة: ٧٤]، وقولـه ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[المنافقـون: ١ - ٢]، وقولـه تعـالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ

وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [المجادلة: ١٤ – ١٨].

دلت هذه الآيات كلها على أن المنافقين كانوا يرضون المؤمنين بالأيمان الكاذبة، وينكرون أنهم كفروا، ويحلفون أنهم لم يتكلموا بكلمة الكفر، وذلك دليل على أنهم يقتلون إذا ثبت ذلك عليهم بالبينة، لوجوه:

أحدها: أنهم لو كانوا إذا أظهروا التوبة قبل ذلك منهم لم يحتاجوا إلى الحلف والإنكار، ولكانوا يقولون: قلنا وقد تبينا. فعلم أنهم كانوا يخافون إذا ظهر ذلك عليهم أنهم يعاقبون من غير استتابة.

الثاني: أنه قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ٢]، واليمين إنما تكون جنة إذا لم تأت ببينة عادلة تكذبها. فإذا كذبتها بينة عادلة انخرقت الجنة، فجاز قتلهم، ولا يمكنه أن يجتن بعد ذلك إلا بجنة من جنس الأولى، وتلك جنة مخروقة.

الثالث: أن الآيات دليل على أن المنافقين إنما عصم دماءهم الكذب والإنكار، ومعلوم أن ذلك إنما يعصم إذا لم تقم بينة بخلافه، ولذلك لم يقتلهم النبي ﷺ، ويدل على ذلك قوله ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٧٣ - ٧٤]، وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التحريم: ٩]، قال الحسن وقتادة رحمهما الله بإقامة الحدود. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه). وعن ابن عباس وابن جريج رضي الله عنهما: (باللسان وتغليظ الكلام وترك الرفق).

ووجه الدليل أن الله أمر رسول الله ﷺ بجهاد المنافقين، كما أمره بجهاد الكافرين، وأن جهادهم إنما يمكن إذا ظهر منهم من القول أو الفعل ما يوجب العقوبة، فإنه ما لم يظهر منه شيء البتة لم يكن لنا سبيل عليه، فإذا ظهر منه كلمة الكفر فجهاده القتل، وذلك يقتضي أن لا يسقط عنه بتجديد الإسلام له ظاهرًا، لأنا لو أسقطنا عنهم القتل بما أظهره من الإسلام لكانوا بمنزلة الكفار، وكان جهادهم من حيث هم كفار فقط لا من حيث هم منافقون، والآية تقتضي جهادهم، لأنهم صنف غير الكفار لا سيما قوله تعالى ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣]، ويقتضي جهادهم من حيث هم المنافقون، لأن تعليق الحكم باسم مشتق مناسب يدل على أن موضع الاشتقاق هو العلة، فيجب أن يجاهد لأجل النفاق كما يجاهد الكافر لأجل الكفر. ومعلوم أن الكافر إذا أظهر التوبة من الكفر كان تركا له في الظاهر ولا يعلم ما يخالفه.

أما المنافق فإذا أظهر الإسلام لم يكن تركا للنفاق، لأن ظهور هذه الحال منه لا ينافي النفاق، ولأن المنافق إذا كان جهاده بإقامة الحد عليه كجهاد الذي في قلبه مرض، وهو الزاني إذا زنا لم يسقط عنه حده إذا أظهر التوبة بعد أخذه لإقامة الحد عليه كما قد عرف.

ولأنه لو قبلت علانيتهم دائمًا مع ثبوت ضدها لم يكن إلى الجهاد على النفاق سبيل، فإن المنافق إذا ثبت عنه أنه أظهر الكفر فلو كان إظهار الإسلام حينئذ ينفعه لم يمكن جهاده، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾[الأحزاب: ٦٠ - ٦٢].

دلت هذه الآية على أن المنافقين إذا لم ينتهوا فإن الله يغري نبيه بهم، وأنهم لا يجاورونه بعد الإغراء بهم إلا قليلا، وأن ذلك في حال كونهم ملعونين أينما وجدوا وأصيبوا: أسروا وقتلوا، وإنما يكون ذلك إذا أظهروا النفاق، لأنه ما دام مكتومًا لا يمكن قتلهم.

وكذلك قال الحسن : (أراد المنافقون أن يظهروا ما في قلوبهم من النفاق، فأوعدهم الله في هذه الآية فكتموه وأسروه).

وقال قتادة: (ذكر لنا أن المنافقين أرادوا أن يظهروا ما في قلوبهم من النفاق، فأوعدهم الله في هذه الآية فكتموا)، ولو كان إظهار التوبة بعد إظهار النفاق مقبولا لم يكن أخذ المنافق ولا قتله لتمكنه من إظهار التوبة لا سيما إذا كان كلما شاء أظهر النفاق ثم أظهر التوبة وهي مقبولة منه.

يؤيد ذلك أن الله تبارك وتعالى جعل جزاءهم أن يقتلوا، ولم يجعل جزاءهم أن يقاتلوا، ولم يستثن حال التوبة، كما استثناه من قتل المحاربين وقتل المشركين، فإنه قال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾[التوبة: ٥].

وقال في المحاربين: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾[المائدة: ٣٣ - ٣٤].

فعلم أنهم يقتلون من غير استتابة، وأنه لا يقبل منهم ما يظهرونه من التوبة.

ويوضح ذلك أنه جعل انتهاءهم النافع قبل الإغراء بهم وقبل الأخذ والتقتيل، وهناك جعل التوبة بعد ذكر الحصر والأخذ والقتل، فعلم أن الانتهاء بعد الإغراء بهم لا ينفعهم، كما لا تنفع المحارب التوبة بعد القدرة عليه، وإن نفعت المشرك من مرتد وأصلي التوبة بعد القدرة عليه، وقد أخبر ﷻ أن سنته فيمن لم يتب عن النفاق حتى قدر عليه أن يؤخذ ويقتل، وأن هذه السنة لا تبديل لها، والانتهاء في الآية إما أن يعني به الانتهاء عن النفاق بالتوبة الصحيحة، أو الانتهاء عن إظهاره عند شياطينه وعند بعض المؤمنين، والمعنى الثاني أظهر، فإن من المنافقين من لم ينته عن إسرار النفاق حتى مات النبي ﷺ، وانتهوا عن إظهاره حتى كان في آخر الأمر لا يكاد أحد يجترئ على إظهار شيء من النفاق.

نعم الانتهاء يعم القسمين فمن انتهى عن إظاهره فقط أو عن أسراره وإعلانه خرج من وعيد هذه الآية ومن أظهر لحقه وعيدها..

ويدل على جواز قتل الزنديق المنافق من غير استتابة ما خرجاه في الصحيحين عن علي رضي الله عنه في قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، فقال عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: **«إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»**[1].

(١) البخاري (٣٠٠٧) مسلم (٢٤٩٤).

فدل على أن ضرب عنق المنافق من غير استتابة مشروع إذ لم ينكر النبي ﷺ على عمر استحلال ضرب عنق المنافق، ولكن أجاب بأن هذا ليس بمنافق، ولكنه من أهل بدر المغفور لهم، فإذا أظهر النفاق الذي لا ريب أنه نفاق فهو مباح الدم.

وعن عائشة رضي الله عنها: في حديث الإفك قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: (من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان ليدخل على أهلي إلا معي. فقام سعد بن معاذ أحد بني عبد الأشهل فقال: يا رسول الله أنا والله أعذرك منه: إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا، ففعلنا فيه أمرك. فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه، وكان رجلا صالحا، ولكن احتملته، الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله، لا تقتله، ولا تقدر على ذلك. فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد يعني ابن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله، لنقتلنه، فإنك منافق، تجادل عن المنافقين. فثار الحيان الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم، حتى سكتوا وسكت[1].

(١) البخاري (٢٦٦١)، مسلم (٢٧٧٠).

وفي الصحيحين عن عمرو عن جابر بن عبدالله قال: غزونا مع رسول الله وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعاب، فكسع أنصاريا، فغضب الأنصاري غضبًا شديدًا، حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فخرج النبي ﷺ فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية**»؟ ثم قال: «**ما شأنهم**»؟ فأخبرهم بكسعة المهاجري والأنصاري. قال: فقال النبي ﷺ: «**دعوها، فإنها خبيثة**» وقال عبدالله بن أبي ابن سلول: أقد تداعوا علينا؟ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال عمر: ألا نقتل يا نبي الله هذا الخبيث. لعبد الله، فقال النبي ﷺ: «**لا؛ يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»[1].

وذكر أهل التفسير وأصحاب السير أن هذه القصة كان في غزوة بني المصطلق: (اختصم رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، حتى غضب عبدالله بن أبي، وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم غلام حديث السن. وقال عبد الله بن أبي: أفعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. يعني بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ، ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم،

(١) البخاري (٤٩٠٧)، مسلم (٢٥٨٤).

وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لئن أمسكتم عنهم فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، ولأوشكوا أن يتحولوا عن بلادكم، ويلحقوا بعشائرهم ومواليهم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد، فقال زيد بن أرقم: أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك، ومحمد في عز من الرحمن، ومودة من المسلمين، والله لا أحبك بعد كلامك هذا. فقال عبدالله: اسكت، فإنما كنت ألعب. فمسى زيد بن أرقم بها إلى النبي ﷺ، وذلك بعد فراغه من الغزوة وعنده عمر بن الخطاب، فقال: «دعني أضرب عنقه يا رسول الله، فقال: إذا ترعد له أنف كثيرة بيثرب [1]»، فقال عمر: فإن كرهت يا رسول الله أن يقتله رجل من المهاجرين فمر سعد بن معاذ أو محمد بن مسلمة أو عباد بن بشر فليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ: «**فكيف يا عمر؟ إذا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؛ لا، ولكن آذن بالرحيل**»[2].

وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، وأرسل النبي ﷺ إلى عبد الله بن أبي فأتاه، فقال: (أنت صاحب هذا الكلام؟ فقال عبدالله: والذي أنزل عليك الكتاب بالحق ما قلت من هذا شيئًا، وإن زيدا لكاذب، فقال من حضر من الأنصار: يا رسول الله شيخنا وكبيرنا، لا تصدق عليه كلام غلمان من غلمان الأنصار، عسى أن

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٤٠٦.
(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ٤٠٦.

يكـون هذا الغـلام وهم في حديثـه، ولم يحفظ ما قال. فعذره رسـول الله ﷺ، وفشت الملامة في الأنصار لزيد وكذبوه، وقالوا: وبلغ عبدالله ابـن عبدالله بن أبي -وكان من فضـلاء الصحابة- ما كان من أمر أبيه فأتى رسـول الله ﷺ فقال: يا رسـول الله بلغني أنك تريد قتل عبدالله ابـن أبي لمـا بلغك عنه، فإن كنـت فاعلًا فمرني، فأنا أحمل إليك رأسـه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالديه مني، وإني أخشى أن تأمـر بـه غيري فيقتلـه، فلا تدعني نفـسي أنظر إلى قاتـل عبدالله بن أبي يمـشي في النـاس فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافـر، فأدخل النار. فقال له النبي ﷺ: «**بل نرفق به، ونحسن صحبته، ما بقي معنا**» وقال النبي ﷺ: «**لا، يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه، ولكن بر أباك وأحسن صحبته**» وذكروا القصة قالوا: وفي ذلك نزلت سورة المنافقين[1].

وقـد أخرجـا في الصحيحين عن زيـد بن أرقم قـال: خرجنا مع النبـي ﷺ في سـفر أصاب النـاس فيه شـدة، فقال عبدالله بـن أبي: لا تنفقـوا على من عند رسـول الله حتـى ينفضوا من حولـه. وقال: لئن رجعنـا إلى المدينة ليخرجن الأعز منهـا الأذل. فأتيت النبي ﷺ بذلك فأرسل إلى عبدالله بن أبي فسأله فاجتهد يمينه ما فعل، فقالوا:

(١) تفسير ابن كثير (تفسير سورة المنافقون) ورواه ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٢٩٠.

كذب زيد يا رسول الله قال: فوقع في نفسي مما قالوه شدة، حتى أنزل الله تصديقي ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١]، قال: ثم دعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم[١].

ففي هذه القصة بيان أن قتل المنافق جائز من غير استتابة، وإن أظهر إنكار ذلك القول وتبرأ منه وأظهر الإسلام، وإنما منع النبي ﷺ من قتله ما ذكره من تحدث الناس أنه يقتل أصحابه، لأن النفاق لم يثبت عليه بالبينة، وقد حلف أنه ما قال وإنما علم بالوحي وخبر زيد بن أرقم وأيضًا لما خافه من ظهور فتنة بقتله وغضب أقوام يخاف افتتانهم بقتله.

وذكر بعض أهل التفسير: أن النبي ﷺ عد المنافقين الذين وقفوا له على العقبة في غزوة تبوك ليفتكوا به، فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: «**أكره أن يقول العرب لما أظفر بأصحابه أقبل يقتلهم، بل يكفيناهم الله بالدبيلة**»[٢].

ففي هذه الأحاديث دلالة على أن قتل المنافق كان جائز إذ لولا ذلك لأنكر النبي ﷺ أن الدم معصوم بالإسلام، ولم يعلل ذلك بكراهية غضب عشائر المنافقين لهم، وأن يتحدث الناس أن محمدًا

(١) البخاري (٤٩٠٣)، مسلم (٢٧٧٢).
(٢) سبق تخريجه.

يقتل أصحابه وأن يقول القائل: لما أظفر بأصحابه أقبل يقتلهم، لأن الدم إذا كان معصومًا كان هذا الوصف عديم التأثير في عصمة دم المعصوم، ولا يجوز تعليل الحكم بوصف لا أثر له، ونزل تعليله بالوصف الذي هو مناط الحكم، وكما أنه دليل على القتل من غير استتابة على ما لا يخفى.

فإن قيل: فلم لم يقتلهم النبي ﷺ مع علمه بنفاق بعضهم وقبل علانيتهم؟

قلنا: إنما ذاك لوجهين:

أحدهما: أن عامتهم لم يكن ما يتكلمون به من الكفر مما يثبت عليهم بالبينة، بل كانوا يظهرون الإسلام، ونفاقهم يعرف تارة بالكلمة يسمعها الرجل المؤمن فينقلها إلى النبي ﷺ فيحلفون بالله أنهم ما قالوا أو لا يحلفون، وتارة بما يظهر من تأخرهم عن الصلاة والجهاد واستثقالهم وظهور الكراهة منهم لكثير من أحكام الله وعامتهم يعرفون في لحن القول، كما قال الله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٢٩ - ٣٠].

فأخبر ﷻ أنه لو شاء لعرفهم رسوله بالسيماء في وجوههم، ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، فأقسم أنه لا بد أن

يعرفهم في لحن القول، ومنهم من كان يقول القول أو يعمل العمل فينزل القرآن يخبر أن صاحب ذلك القول والعمل منهم، كما في سورة براءة، وبينهم من كان المسلمون أيضًا يعلمون كثيرًا منهم بالشواهد والدلالات والقرائن والأمارات، ومنهم من لم يكن يعرف ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾[التوبة: ١٠١].

ثم جميع هؤلاء المنافقين يظهرون الإسلام ويحلفون أنهم مسلمون وقد اتخذوا أيمانهم جنة، وإذا كانت هذه حالهم فالنبي ﷺ لم يكن يقيم الحدود بعلمه ولا بخبر الواحد ولا بمجرد الوحي ولا بالدلائل والشواهد، حتى يثبت الموجب للحد ببينة أو إقرار، ألا ترى كيف أخبر عن المرأة الملاعنة أنها إن جاءت به على النعت المكروه، فقال: (لولا الأيمان لكان لي ولها شأن)[1].

وكان بالمدينة امرأة تعلن الشر، فقال: «**لو كنت راجمًا أحدًا من غير بينة لرجمتها**»[2]، وقال للذين اختصموا إليه: «**إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما أقطع له**

(١) أصله في الصحيحين، وهذا اللفظ رواه أبو داود (٢٢٥٦) وضعفه الألباني.
(٢) رواه مسلم (١٤٩٧).

قطعة من نار»[1] فكان ترك قتلهم - مع كونهم كفارًا - لعدم ظهور الكفر منهم بحجة شرعية.

ولما استؤذن أيضًا في قتل رجل من المنافقين، قال: «**أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟**» قيل: بلى، قال: «**أليس يصلي؟**» قيل: بلى، قال: «**أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم**»[2].

فأخبر ﷺ أنه نهى عن قتل من أظهر الإسلام من الشهادتين والصلاة - وإن ذكر بالنفاق ورمي به وظهرت عليه دلالته - إذا لم يثبت بحجة شرعية أنه أظهر الكفر.

وكذلك قوله في الحديث الآخر: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»[3].

معناه أني أمرت أن أقبل منهم ظاهر الإسلام، وأكل بواطنهم إلى الله. والزنديق والمنافق إنما يقتل إذا تكلم بكلمة الكفر، وقامت عليه بذلك بينة، وهذا حكم بالظاهر لا بالباطن، وبهذا الجواب يظهر فقه المسألة.

---

(١) البخاري (٢٦٨٠)، مسلم (١٧١٣).
(٢) مسند أحمد (٢٣٦٧٠)، موطأ مالك ١/ ٨٥ مرسلاً بسند صحيح.
(٣) البخاري (٣٩٢)، مسلم (٢١).

الوجه الثاني: أنه ﷺ كان يخاف أن يتولد من قتلهم من الفساد أكثر مما في استبقائهم، وقد بين ذلك حين قال: «**لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»[1]، وقال: «**إذا ترعد له أُنُفٌ كثيرة بيثرب**»[2]، فإنه لو قتلهم بما يعلمه من كفرهم لأوشك أن يظن الظان أنه إنما قتلهم لأغراض وأحقاد، وإنما قصده الاستعانة بهم على الملك، كما قال: «**أكره أن تقول العرب: لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم**»[3]، وأن يخاف من يريد الدخول في الإسلام أن يقتل مع إظهاره الإسلام كما قتل غيره.

وقد كان أيضًا يغضب لقتل بعضهم قبيلته وأناس آخرون، فيكون ذلك سببًا للفتنة، واعتبر ذلك بما جرى في قصة عبدالله بن أبي لما عرض سعد بن معاذ بقتله خاصم له أناس صالحون، وأخذتهم الحمية، حتى سكتهم رسول الله ﷺ، وقد بين ذلك رسول الله ﷺ لما استأذنه عمر في قتل ابن أبي[4]. قال أصحابنا، ونحن الآن إذا خفنا مثل ذلك كففنا عن القتل.

فحاصله أن الحد لم يقم على واحد بعينه لعدم ظهوره بالحجة الشرعية، التي يعلمه بها الخاص والعام، أو لعدم إمكان إقامته إلا مع

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.

تنفير أقوام عن الدخول في الإسلام وارتداد آخرين عنه وإظهار قوم من الحرب والفتنة ما يربو فساده على فساد ترك قتل منافق. وهذان المعنيان حكمهما باق إلى يومنا هذا، إلا في شيء واحد، وهو أنه ﷺ ربما خاف أن يظن الظان أنه يقتل أصحابه لغرض آخر، مثل أغراض الملوك، فهذا منتف اليوم.

والذي يبين حقيقة الجواب الثاني أن النبي ﷺ لما كان بمكة مستضعفا هو وأصحابه عاجزين عن الجهاد، أمرهم الله بكف أيدهم، والصبر على أذى المشركين، فلما هاجروا إلى المدينة، وصار له دار عزة ومنعة، أمرهم بالجهاد، وبالكف عمن سالمهم، وكف يده عنهم، لأنه لو أمرهم إذ ذاك بإقامة الحدود على كل منافق، لنفر عن الإسلام أكثر العرب، إذا رأوا أن بعض من دخل فيه يقتل، وفي مثل هذه الحال نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٨].

وهذه السورة نزلت بالمدينة بعد الخندق، فأمره الله في تلك الحال أن يترك أذى الكافرين والمنافقين له، فلا يكافئهم عليه، لما يتولد في مكافأتهم من الفتنة، ولم يزل الأمر كذلك حتى فتحت مكة، ودخلت العرب في دين الله قاطبة، ثم أخذ النبي ﷺ في غزو الروم، وأنزل الله تبارك وتعالى سورة براءة، وكمل شرائع الدين من الجهاد والحج

والأمر بالمعروف، فكان كمال الدين حين نزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[المائدة: ٣]، قبل الوفاة بأقل من ثلاثة أشهر، ولما نزلت براءة أمره الله بنبذ العهود التي كانت للمشركين، وقال فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التوبة: ٧٣].

وهذه ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾[الأحزاب: ٤٨]، وذلك أنه لم يبق حينئذ للمنافق من يعينه لو أقيم عليه الحد، ولم يبق حول المدينة من الكفار من يتحدث بأن محمدًا يقتل أصحابه، فأمره الله بجهادهم والإغلاظ عليهم.

وقد ذكر أهل العلم أن آية الأحزاب منسوخة بهذه الآية ونحوها، وقال في الأحزاب: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟﴾[الأحزاب: ٦٠ - ٦١]، فعلم أنهم كانوا يفعلون أشياء إذ ذاك إن لم ينتهوا عنها أقبلوا عليها في المستقبل لما أعز الله دينه ونصر رسوله، فحيث كان للمنافق ظهور وتخاف من إقامة الحد عليه فتنة أكبر من بقائه عملنا بآية: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾[الأحزاب: ٤٨]، كما أنه حيث عجزنا عن جهاد الكفار عملنا بآية الكف عنهم والصفح، وحيث ما حصل القوة والعز خوطبنا بقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[التوبة: ٧٣].

فهذا يبين أن الإمساك عن قتل من أظهر نفاقه: بكتاب الله على عهد رسوله ﷺ، إذ لا نسخ بعده، ولم نَدَّعِ أن الحكم تغير بعده لتغير المصلحة من غير وحي نزل، فإن هذا تصرف في الشريعة وتحويل لها بالرأي ودعوى أن الحكم المطلق كان لمعنى وقد زال، وهو غير جائز، كما قد نسبوا ذلك إلى من قال: إن حكم المؤلفة انقطع، ولم يأت على انقطاعه بكتاب ولا سنة، سوى ادعاء تغير المصلحة)[1].

نخلص من هذا النقل النفيس عن شيخ الإسلام رحمه الله في أحكام جهاد المنافقين إلى النتائج الآتية:

أولًا: أن المنافق إذا أظهر نفاقه وجب قتله من غير استتابة، إلا أن يكون في قتله مفسدة كبرى تربو على مفسدة بقائه. ويتولى الحكم عليهم وإقامة الحدود ولاة الأمر من علماء وأمراء، ولا يترك الأمر يحكم فيه وينفذه عامة الناس، ففي ذلك مفاسد عظيمة لا تخفى.

ثانيًا: إن ترك النبي ﷺ قتل المنافقين في زمانه ﷺ كان لسببين كبيرين هما:

١. أنهم كانوا ينكرون ما ينقل عنهم من الكفر والزندقة، ويتخذون أيمانهم الكاذبة جنة، يتقون بها عقوبة القتل، أي أنهم لا يظهرون

(١) الصارم المسلول: المسألة الثالثة (الوجوه الدالة على جواز قتل المنافقين إذا ثبتت البينة) ٣/ ٦٥٦-٦٨٤ باختصار.

نفاقهم، ولم يثبت كفرهم بالبينة القاطعة، أي أنه لم يظهر كفرهم بحجة شرعية.

٢. لما يتخوفه ﷺ مما يتولد عن قتلهم من الفساد والفتنة كقول الناس إن محمدًا يقتل أصحابه فينفرون من الإسلام. أو أن تأخذ أقوامهم الحمية فيغضبون لهم وتحصل المقتلة والفتنة بين المسلمين وهذان السببان حكمهما باق إلى يومنا هذا، وفي عدم مراعاتهما في التعامل مع المنافقين وجهادهم ينشأ عنه فتنة وفساد كبير.

ثالثًا: يختلف التعامل مع المنافقين، وما ينبغي أن يتخذ في حقهم حسب مراحل القوة والاستضعاف التي يمر بها المسلمون فبينما يكون الصفح عنهم وترك أذاهم في حالة ظهورهم وضعف المسلمين، فإن الغلظة وإقامة الحدود عليهم تكون في حالة قوة المسلمين، وضعف المنافقين، ويظهر هذا في سورة الأحزب، حيث قال الله ﷻ في هذه السورة: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، بينما قال في آخرها: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠ - ٦١].

وهنا يمكن القول: إذا كان واقع المسلمين اليوم في أكثر الأحوال لا يسمح بجهاد المنافقين بإقامة الحدود أو الإغلاظ عليهم لكف شرهم، فلا أقل من تعويض ذلك بجهادهم باللسان، وما يقوم مقامه من كل وسيلة ترد ما يستطاع من كيدهم للدين، وإلا فإن ذلك النفاق سيظل يتوحش ويطغى حتى يهدد بهدم معالم الإيمان والدين في كل بلاد المسلمين، والجهاد المطلوب يشترط فيه أن يكون وفق الضوابط الشرعية والموازنة بين المصالح والمفاسد.

وبعد هذا الاستطراد في جهاد المنافقين بالسيف وضوابطه نعود إلى الموقف الأخير مع المنافقين وهو:

• **الثالث عشر:**

وبعد أن نظرنا إلى المنافقين بعين الشرع وما هو الواجب الشرعي إزاءهم، وذلك في الفقرات السابقة، فإنه ينبغي لنا النظر إليهم بعين أخرى، نشفق عليه، ونناصحهم بها، ألا وهي:

عين القدر: وبهذه العين نرحمهم ، ونشفق عليهم، ونسأل الله تعالى لهم الهداية، ونحمد الله ﷻ أن نجانا وعافانا مما ابتلاهم به، فقلوب العباد بين إصبعين من أصابعه ﷻ يقلبها حيث يشاء، ولو شاء الله لجعلنا مثلهم. ويصف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أمثال هؤلاء من أهل الأهواء والبدع، فيقول: «ومن وجه آخر إذا نظرت إليه بعين القدر –

والحيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم- رحمتهم ورفقت عليهم، أوتوا ذكاءً، وما أوتوا زكاء، وأعطوا فهومًا، وما أعطوا علومًا، وأعطوا سمعًا وأبصارًا وأفئدة، ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦][1].

وينظم هذا المعنى الإمام ابن القيم رحمه الله بشعره الرائق في نونيته البليغة، فيقول:

(فانظر بعين الحكم وارحمهم بها

إذ لا ترد مشيئة الديان

وانظر بعين الأمر واحملهم على

أحكامه فَهُمَا إذا نظران

واجعل لوجهك مقلتين كلاهما

من خشية الرحمن باكيتان

لو شاء ربك كنت أيضًا مثلهم

فالقلب بين أصابع الرحمن)[2] ا.هـ.

---

(١) الفتوى الحموية ص٥٥٣.

(٢) شرح قصيدة نونية ابن القيم ١/ ١٣١.

obeikandl.com

وإن من حقهم علينا، ونحن ننظر إليهم بعين الشفقة والرحمة التوجه إليهم بالوصية الآتية:

نوصيكم يا قوم، بوصية الله ﷻ للمختلفين في الحق في قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبأ: ٤٦].

فلقد ضمن الله ﷻ لمن أخذ بموعظته ﷻ في هذه الآية أن يدله على الحق ويوفقه لسلوكه، فتقتضي هذه الموعظة البليغة أن تقوموا لله متجردين من كل هوى وغرض دنيوي، راغبين في سلوك الحق، وهذا يقتضي منكم أن تسألوا أنفسكم وتفكروا في حقيقة ما أنتم عليه، كل شخص يخلو بنفسه (فرادى) أو مع صاحب له (مثنى)، وتتفكروا فيما تطرحونه: ما هدفكم من ذلك؟ وهل أنتم مقتنعون أنه الحق؟ وأنه الذي يحقق لمجتمعكم الخير والصلاح، وأنكم تثابون عليه يوم القدوم على الله ﷻ، أم أنكم لم تفكروا في هذا أصلًا.

يا قومنا، إن قمتم لله متجردين، ثم تفكرتم في أحوالكم (مثنى وفرادى)، فإنكم ستجدون أمورًا مخيفة في داخل نفوسكم وفي واقعكم، منها ما يصادم الفطرة، ومنها ما يصادم العقل السوي، وكثير منها يصادم شرع الله ﷻ ويجلب سخطه، فالله الله أنقذوا أنفسكم من النكد والشقوة في الدنيا والآخرة، فما هي إلا ساعة من نهار، وننتقل

وتنتقلون إلى الآخرة، وهناك الوقوف بين يدى الله ﷻ، وهناك: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]، ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]، ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١]، فبادروا بالتوبة ما دام في العمر فسحة: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥ - ٦]، وتأملوا قول الله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧].

ندعوكم إلى التوبة الصادقة إلى الله ﷻ قبل أن يحق فيكم وعيد الله ﷻ للمنافقين بقوله ﷻ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، وبقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥ - ١٤٦].

obeikandl.com

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والشكر لله ﷻ على توفيقه وامتنانه، بالفراغ من الكتابة في هذا الموضوع المهم الذي يتعلق بأعدى أعداء الإسلام وأهله، أسأله ﷻ أن يجعله خالصًا لوجهه نافعًا لعباده، وأن يتقبله مني في جهاد المجاهدين، الذي يدفع به فتنة الكفار والمنافقين، ويحسن في هذه الخاتمة أن أضمنها أهم ما ورد في ثنايا الكتاب. وقبل ذلك أذكر هاهنا مسألة قد فاتت عليَّ في هذه الدراسة وهي جديرة بالذكر، ألا وهي: ذكر أهم الأسباب الموقعة في النفاق وسبل اتقائه وعلاجه:

أولًا: ذكر الأسباب.

لا تعدو هذه الأسباب أن تكون من مرضين:

أ- مرض شبهة تمكنت من القلب، وافقت جهلًا أو هوى فأفسدته وأخربته.

ب- مرض شهوة ملأت القلب، فآثر بسببها الحياة الدنيا على الآخرة. وغالبًا ما تمتزج فيه الشهوة بالشبهة.

أما مرض الشبهة:

وهو أشد المرضين وأخطرهما، إذ إن مؤداه إلى الكفر الصراح، الذي لا لبس فيه ولا غموض، وقلما يتوب منه من ابتلي به، حيث إن الشبهة تعطل التفكير السليم للعقل، وتصيبه بالحيرة والشك والجحود، ويحسب صاحبه أنه يحسن صنعًا.

ومثل هذه القلوب لا تشفى إلا قليلًا. وقد سبق في حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم عن الفتن، وهي تعرض على القلوب قوله ﷺ «.. **فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير القلوب على قلبين: قلب أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر مرباد كالكوز مجخيًا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه**»[1].

وعن هؤلاء قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠].

وأما مرض الشهوة:

فهو الناشئ من حب الدنيا من مال ومناصب ونساء وغيرها. فمثل هذه الصوارف إذا تمكنت من القلب ورانت عليه آثرها على

(١) سبق تخريجه.

الـدار الآخرة، وآثـر من أجلها الباطـل على الحق عالمًـا قاصدًا ، وقد أودت شـهوة حـب المـال والبخل به بأقـوام في زمن الرسـول ﷺ إلى النفاق، قـال الله تعـالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧]. ومرض الشـهوة من أمراض القلـوب الفتاكة قال تعـالى: ﴿**فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ**﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وجاء في البخاري عندما أسـاء عبدالله بن أبي الأدب مع رسـول الله ﷺ بقولـه: (إن كان مـا تقـول حقًّا فـلا تؤذنا في مجالسـنا، وارجع إلى رحلك). فقال رسـول الله ﷺ لسـعد بن عبادة: «**ألم تسـمع ما قال أبو الحباب** - يريد عبدالله بن أبي- **قال كذا وكذا**». قال سـعد: اعف عنه يا رسـول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يتوجوه، فيعصبوه بالعصابة، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت)[1].

وهـذان المرضـان -أعني مرض الشـبهة والشـهوة- هما سـبب كل انحراف وضلال، سواء كان ذلك نفاقًا أو كفرًا أو فسقًا أو بدعة أو غيرها.

(١) البخاري (٤٥٦٦).

وقد انفرد النفاق عن هذه الضلالات بسبب آخر في وجوده، وذلك بكون أهله يخفون الكفر الذي في بواطنهم، وذلك خوفًا من أن ينبذهم المجتمع المسلم أو أن يقيم الحاكم المسلم حد الردة عليهم، وبخاصة عندما يكون لأهل الإسلام قوة وتمكين، كما هو الحال في العهد المدني، عندما كان للمسلمين دولة وقوة، بينما لم يظهر ذلك في العهد المكي، حيث الاستضعاف الذي عاشه المسلمون هنالك.، وهكذا هو شأن المنافقين في كل زمان، لا يوجدون إلا حينما يقوى المسلمون، ويكونوا نشازًا بينهم، فينافقون ويخفون كفرهم، خوفًا على أنفسهم، ولكن حين يضعف المسلمون، ويتسلط الكفار على ديارهم عسكريًّا وفكريًّا، وحين يغيب شرع الله عن الحكم، فإنه آنذاك يظهرون كفرهم ولا يخفونه بالنفاق، لأنهم قد أمنوا العقاب وإقامة الحدود عليه، كما هو الحاصل اليوم في أكثر بلدان المسلمين.

ويبدو أن الخوف الشديد والجبن الأكيد هو السبب الأكبر الذي دفع بهؤلاء الناس -الكفار في بواطنهم- إلى إخفاء ما تكنه صدورهم، وإظهار خلافه من الإيمان والتصديق، ثم هم يتفاوتون بعد ذلك في الأسباب التي دفعتهم إلى هذا الخوف؛ فمنهم من كان خوفه على نفسه، ومنهم من كان خوفه على ماله أن يؤخذ منه فيحرمه بسبب اكتشاف خبيئته، ومنهم من كان خوفه على جاهه وسمعته ومركزه بين بني قومه أن يهتز ويتأثر)[1].

(١) انظر كتاب دراسة قرآنية في النفاق وأثره في حياة الأمة د. عادل الشدي ص٦٢ (بتصرف يسير).

ومـن أسـباب إخفـاء المنافقين لنفاقهـم وكفرهـم حرصهم على إحـداث الفتنـة في الصـف المسـلم، فلـو أظهـروا أنفسـهم لعرفهـم المسـلمون وأخذوا حذرهم منهـم، ولكنهم ينافقـون لتحقيق هدف الزعزعـة في صفوف المسـلمين، حتـى إذا حققوا مآربهم كشـفوا عن أنفسهم وزندقتهم.

وقد يقول قائل: إذا كان النفاق لا يظهر إلا في حال قوة المسلمين وقوة سلطانهم، فما سر ظهوره اليوم والمسلمون في حالة من الضعف والذلة؟

والجـواب عـلى ذلـك أن يقـال: «إن ظهور الصحوة الإسـلامية اليوم التي شـملت المسـلمين في جميع طبقاتهم وشرائحهم وأماكنهم، هي التـي جعلت المنافقين المبغضين للإسـلام وأهله يـزدادون خوفًا وجبنًـا، ويفكـرون مـرات ومرات قبـل الإقدام عـلى التصريح بما في نفوسهم، حيث يعلمون أن هناك من يتتبع زلاتهم، ويهتك أستارهم، ويفضحهـم أمام الأمـة، إن أظهروا ما في بواطنهـم. وهذا يؤكد على أن اسـتمرار الصحوة الإسلامية بقوتها وزخمها وتعاون أفرادها صمام أمان أمام ظهور المد النفاقي، وكبح لنشاطه الإفسادي)[1].

(١) المصدر السابق نفسه ص٧٧، ٧٨ (بتصرف يسير).

سبل اتقاء النفاق:

يتقى النفاق باتقاء أسبابه. ولما كان من أهم أسباب الوقوع فيه: الشبهات والشهوات، كان التعرف على سبل اتقاء الشبهات والشهوات مما يعين بإذن الله ﷻ على اتقاء الوقوع في النفاق بنوعيه.

ذكر بعض السبل التي تتقى بها الشبهات والشهوات

أ- التضرع بين يدي الله ﷻ وسؤاله الهداية إلى الحق والثبات عليه. وما أكثر الأحاديث النبوية التي فيها سؤال الله ﷻ الهداية للحق والثبات عليه، ومن ذلك تكرار الرسول ﷺ لدعاء «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[1]، ومداومته على دعاء الاستفتاح في صلاة الليل «**اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[2]، والأدعية في ذلك كثيرة. وهذا أمر قد لا ينتبه له كثير من المشتغلين بالقراءة والثقافة

(١) الترمذي (٢١٤٠)، ورواه مسلم بلفظ: «**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**» (٢٦٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٧٧٠).

والفكر وسعة الاطلاع، حيث يظنون أن سعة العلم كافية، وأن كثرة القراءة وحدها محصنة للإنسان من الزيغ والانحراف.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

(وقد يكون الرجل من أذكياء الناس وأحدهم نظرًا، ويعميه عن أظهر الأشياء، وقد يكون من أبلد الناس وأضعفهم نظرًا، ويهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فلا حول ولا قوة إلا به.

فمن اتكل على نظره واستدلاله أو عقله ومعرفته خذل، ولهذا كان النبي ﷺ في الأحاديث الصحيحة كثيرًا ما يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[1]، ويقول في يمينه: «**لا ومقلب القلوب**»[2]).

ب- العلم بالشرع والدين الحق (علم الكتاب والسنة بفهم الصحابة رضي الله عنهم)، فإن هذا مما تدفع به الشبهات، لأن الشبهات مرتعها عند أهل الجهل وأنصاف المتعلمين.

جـ- الابتعاد عن مجالس الشبهات والمنافقين والمنكرات التي تنشر البدع وينتشر فيها النفاق والزندقة. وهذه المجالس تشمل مجالس

(١) سبق تخريجه.
(٢) درء تعارض العقل والنقل ٤/ ٣٨٢.

المشـافهة مع أهل الشبهات، كما تشمل اسـتماع أشرطتهم والقراءة في كتبهـم ومقالاتهم والدخول إلى مواقعهم في الشـبكة العنكبوتية وحواراتهم على الفضائيات. كل ذلك ينبغي هجره وعدم حضوره. فإن ذلك مما يقسي القلب ويضعفه، ويجعله يتشرب الشبهات، التي هي مبدأ الانحراف والنفاق، واستبدال هذا بمجالس أهل الاتباع من العلماء والصالحين والقراءة في كتبهم وسيرهم.

د- أن يكـون القلب عند ورود الشـبهات كالزجاجـة المصمتة، ترد الشبهة ولا تمتصها، وهذا ما أوصى به شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تلميذه الإمـام ابـن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حينما أورد ابن القيم على شـيخه بعض الإيرادات، فقال له: (لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل الأسـفنجة فيتشربها، فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشـبهات بظاهرها ولا تسـتقر فيها. فيراها بصفائه ويدفعهـا بصلابته. وإلا فـإذا أشربت قلبك كل شـبهة تمر عليه صار مقرا للشـبهات، أو كما قال)، يقول ابن القيم: فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك)[1].

هـ- ومما يحمي من الوقوع في الشبهات والشهوات والاغترار بها قوة اليقـين والإيمان، بالله عَزَّوَجَلَّ وأسـمائه الحسـنى، وقـوة اليقين باليوم الآخر والخوف من الله عَزَّوَجَلَّ وعقابه، وما أعد لأهل الزيغ والنفاق من العذاب في الدنيا والآخرة.

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٤١.

و- كثرة العبادة والعمل الصالح، الذي استكمل شروط قبوله من الإخلاص والمتابعة، ويكفي في التدليل على أثر ذلك في حماية العبد بالعمل الصالح من الزيغ والانحراف، ما جاء في الحديث القدسي: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها. وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ ني لأعيذنه»[1].

ز- النظر إلى حقيقة الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها، والنظر إلى حقيقة الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد ودوامها، وشرف ونعيم ما أعد الله فيها لعباده المؤمنين، فإن هذا النظر من العبد إلى حقيقة الدنيا والآخرة يؤول به بإذن الله ﷻ إلى إيثار ما يبقى على ما يفنى، وإيثار الكامل في نعيمه وسروره على الناقص المنقطع، وإن لم يحصل هذا الإيثار فإن هذا يدل على ضعف شديد في الإيمان أو نقص كبير في العقل. ولما كان الميل إلى الدنيا وزينتها من أمراض الشهوات التي توقع في الكفر والنفاق وإيثار الباطل على الحق، فكان لزامًا على من أراد لنفسه النجاة من الزيغ والنفاق أن يحذرها، وأن يتذكر

(١) البخاري (٦٥٠٢).

قول الله ﷻ ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧].

وبعد هذا الاستدراك عن أسباب النفاق وسبل اتقائه، أسوق في هذه الخاتمة أهم ما ورد في الكتاب من الوقفات:

- **الوقفة الأولى:**

ورد في مقدمة الكتاب والتمهيد له ذكر مواقف الناس من الهدى الذي بُعث به نبينا محمد ﷺ، وأنهم أربع طوائف: طائفة آمنت به باطنًا وظاهرًا وهم المؤمنون الصادقون، وطائفة كفرت به باطنًا وظاهرًا وهم الكفار المعلنون لكفرهم، وطائفة آمنت به ظاهرًا وكفرت به باطنًا وهم المنافقون النفاق الأكبر، وطائفة آمنت به باطنًا وكفرت به ظاهرًا تقية تحت الإكراه وهم المستضعفون من المؤمنين. وذكرت أن طائفة المنافقين هم أخبث وأشد خطرًا من الكفار المعلنين لكفرهم، ذلك أن الله ﷻ حذر منهم بقوله: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ [المنافقون: ٤]. ولذا جاءت هذه الدراسة لعل الله ﷻ أن ينفع بها في تحقيق الأهداف الآتية:

١. بيان خطر المنافقين الزنادقة على الإسلام والمسلمين في تاريخهم الطويل وفي واقعنا المعاصر. وأن بيان خطرهم وفضحهم وتعريتهم لمن أفضل أنواع الجهاد.

٢. بيـان صفاتهـم التـي يعرفون بها، كـما جاء ذلـك في كتاب الله عزجـل، وإنزالهـا على منافقـي زماننا اليوم، الذيـن هم أغلظ وأشد نفاقًا من سلفهم الأولين.

٣. بيـان أن أنـواع النفاق تجـاوزت النفاق الفـردي إلى أن تكون نفاقًا اجتماعيًّا ونفاقًا سياسيًّا وآخر اقتصاديًّا ووطنيًّا.

٤. الوقـوف في وجـه الحملة العالمية التي يشـنها الكفار على أهل السنة من المسـلمين، مستخدمين إخوانهم من المنافقين في كل بلـد لتنفيذ مخططات هذه الحملة، فكان فضح هؤلاء المنافقين من أوجب الواجبات.

٥. بيـان الموقـف الشرعـي في التعامـل مـع المنافقـين في حالتـي الاستضعاف والقوة للمسلمين.

٦. بيـان مظاهر وخصال النفـاق العملي، الذي أصاب حياة كثير منا بالخلل، والتنبيه على أشهرها، والتحذير منها.

• **الوقفة الثانية:**

وبعـد هـذا التمهيد جـاء الفصـل الأول لبيان معنـى النفاق لغة وشرعًا، وأنه ينقسم إلى نفاق أكبر صاحبه مخلد في النار لإبطانه الكفر

وإظهاره الإسلام كذبًا وخداعًا، وآخر هو النفاق العملي الذي يتصف فيه صاحبه ببعض خصال المنافقين، ولا يخرجه ذلك عن الإسلام ما دام عنده إيمان في الباطن.

• **الوقفة الثالثة:**

ما جاء في الفصل الثاني من ذكر بعض الآيات من كتاب الله ﷻ وكثير من الأحاديث النبوية والآثار السلفية التي تذم النفاق وأهله، وتبين صفاتهم، وتحذر من طريقتهم وخطرهم.

• **الوقفة الرابعة:**

ما جاء في الفصل الثالث: وهو أطول فصول الكتاب، حيث ضمنته أهم أوصاف المنافقين وخصالهم، كما جاء ذلك في الكتاب والسنة. وحاولت إنزال بعض هذه الصفات على منافقي زماننا موثقًا ذلك من بعض مقالاتهم ومواقفهم من كتبهم ومواقعهم وصحفهم، منوهًا قبل ذلك بأن منافقي زماننا أشد وأغلظ نفاقًا من المنافقين الأولين، وذلك من وجوه عدة ذكرتها هنالك.

• **الوقفة الخامسة:**

ما جاء في الفصل الرابع من بيان خطر المنافقين وفتنتهم في الماضي والحاضر. وأنه ما من نكبة أو نازلة نزلت بالمسلمين في تاريخهم السابق

obeikandl.com

والمعـاصر، إلا وكان للمنافقـين اليـد الطـولى في حلول هـذه النكبات، والتمهيـد لهـا، والتواطـؤ مـع الكفار في غزو بلاد المسـلمين: عسـكريًّا وفكريًّا وأخلاقيًا، وذكرت في هذا الفصل صورًا من هذه الفتن والخداع، وصـورًا لبعـض ما عاناه المسـلمون مـن المنافقـين في تاريخهم السـابق والمعاصر، محذرًا من هذه الفتن، مبينًا بعض الوسائل في مواجهتها.

• **الوقفة السادسة:**

مـا جاء في الفصـل الخامس من ذكر الموقـف الشرعي في التعامل مع المنافقين وأسـاليبهم، وما هو الحكم عليهـم، وما معنى قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التوبة: ٧٣]، وما هي الاحترازات التي ينبغي الأخذ بها في التعامل مع المنافقين. وكيف يكون جهادهم، وأن ذلك يختلف حسـب أحوال المسـلمين من القوة والاستضعاف، فبينما يكون الكف عنهم والصبر على أذاهم ومجاهدتهم باللسان في حال الضعف وعدم التمكين للمسلمين، فإن الحال تختلف في التعامل معهم في حال قوة المسـلمين وتمكنهـم، حيث إقامة حدود الله ﷻ عليهم، حسب ما يظهر عليهم من النفاق والكفر والزندقة.

وختمـت هذا الفصل ببيـان أن من الموقف الشرعي من المنافقين وعظهم ونصحهم وبيان خطر ما هم عليه، وما يؤول أمرهم إليه من عذاب الله ﷻ لهم في الدنيا والآخرة لعلهم يرجعون.

• **الوقفة السابعة:**

وهو ما جاء في الخاتمة من استدراك لمسألة فاتت عليَّ كان الأولى أن تكون في الفصول الأولى من الكتاب ألا وهي ذكر الأسباب التي توقع في النفاق، وكيف يمكن اتقاؤها، وذكرت في ذلك أن أهم الأسباب لا تعدو أن تكون شبهة أو شهوة، وغالبًا ما تكون مزيجًا بين شهوة وهوى يغطى بشبهة أو تأويل فاسد.

• **وبعد:**

فهذا ما منَّ الله ﷻ به من الكتابة في هذا الموضوع المهم والملح في هذا الزمان فما فيه من حق وصواب فمن الله ﷻ فهو المان به والموفق له، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله ﷻ من ذلك. اللهم اغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

ضحى الخميس

١٤٣٥/٨/١٤

obeikandl.com